

الفكر الجزائري الحديث

الأمير عبد القادر الجزائري

الدكتور شيخ محمد



- يعتبر الأمير عبد القادر الجزائري (1808-1883) شخصية بارزة في تاريخ الجزائر والعالم الإسلامي، ويمثل نموذجًا للقائد المثقف، الفيلسوف، والمقاوم. اشتهر بدوره في مقاومة الاستعمار الفرنسي، وكذلك عرف بفكره الإنساني العميق وسعيه الدؤوب لتحقيق العدالة والسلام.

سيرته

- ولد الأمير عبد القادر في قرية القيطنة بولاية معسكر في الجزائر عام 1808، في أسرة عريقة ذات أصول شريفة يعود أصله للأدارسة، الذين كانوا ملوكاً في المغرب والأندلس. واشتهرت عائلته بالعلم والتقوى، خصوصاً والده محي الدين، الذي كان يلقب بالشريف، لانتسابه إلى سلالة الرسول. كما كان شيخاً للطريقة القادرية في الجزائر، وفي ظل هذه الأجواء، نشأ ابنه عبد القادر شغوفاً بالعلم، ومحباً للفروسية، وعاشقاً للشعر. تلقى تعليمه الأولي في العلوم الإسلامية واللغة العربية في الزاوية التي كان يديرها والده محيي الدين. أظهر منذ صغره ذكاءً وتفوقاً في مختلف العلوم، مما جعله يحظى باحترام المجتمع المحيط به.

نضاله وكفاحه

بعد تدهور الأوضاع قرر الأهالي وعلماء "غريس" البحث عن زعيم يبائعونه على الزعامة وقيادتهم في الجهاد، واتفقوا على "محيي الدين الحسني"، ولكن الرجل اعتذر عن الإمارة وقبل قيادة الجهاد، فأرسلوا إلى سلطان المغرب "عبد الرحمن بن هشام"، غير أن فرنسا هددت السلطان بالحرب، فانسحب السلطان واستدعى ابن عمه ليعود الوضع إلى نقطة الصفر من جديد، ولما كان محيي الدين قد رضي بمسئولية القيادة العسكرية، وعبد القادر على رأس الجيش في كثير من هذه الانتصارات، فاقترح "عبد القادر" لهذا المنصب، فقبل الحاضرون، وقبل الشاب تحمل هذه المسؤولية، وتمت البيعة، ولقبه والده بـ "ناصر الدين" واقترحوا عليه أن يكون "سلطان" ولكنه اختار لقب "الأمير"، وبذلك خرج إلى الوجود "الأمير عبد القادر ناصر الدين بن محيي الدين الحسني"، وكان ذلك في 13 رجب 1248هـ الموافق 20 نوفمبر 1832.

- فاختر مدينة المعسكر عاصمة له، وبدأ بجمع المتطوعين، وتكوين جيش قوي، وحقق انتصارات عدة وطارد القائد الفرنسي بوايه، فعزلته فرنسا، وعينت دي ميشيل بدلاً منه. واضطر هذا الأخير إلى عقد اتفاق هدنة مع الأمير عبد القادر، في 1834، وتقر اتفاقية الهدنة سلطته على جميع مقاطعة وهران وتوجب له الحق في أن يعين قناصله وأن يستورد الأسلحة من أية جهة يريد .
- انتهز عبد القادر فرصة الهدنة فشيد الحصون والقلاع والمصانع، وإهتم بالعلم وتوفير الموارد المالية والبشرية لدولته التي قسمها ثلاث مقاطعات إدارية لتسهيل إدارتها وهي معسكر ومليانة وتلمسان، ثم عمد للاهتمام بالقضاء وإرساء قواعد العدل ومحاربة الفساد.

- لكن الفرنسيين لم يلتزموا بالاتفاقية وخرقوها، وثار بعض المنافسين من أهل البلاد عليه. انضمت قبيلتا الدوائر والزمالة إلى فرنسا، فطلب عبد القادر بتسليم رؤسائهم إليه فرفض الفرنسيون ذلك. اندلع القتال مجدداً، وانتصر عبد القادر في معركة سيق، رغم تفوق القوات الفرنسية في العدد والعدة. وفي يوم المقطع، في 26 يوليو 1835، أنزل هزيمة كبيرة ثانية بالقوات الفرنسية، ما أدى إلى تغييرات كبيرة في صفوف قياداتها.
- وتواصلت انتصارات الامير وكانت اكبرها في معركة تافنة في عام 1837م، وتم ابرام على إثرها معاهدة تافنة، لكن المستعمر الفرنسي واصل جرائمه في حق المدنيين، مم اضطر الامير في دخول في معركة ووقعت بعد أن غدر به سلطان المغرب و الذي دخل في حرب معه من جانب و من جانب آخر مع الجنرال لامورسيال قائد القوات الفرنسية، فأيقن بانتهاء الأمر واستسلم للفرنسيين في 23 ديسمبر عام 1847.
- توفي سنة 1883 عن عمر يناهز 76 عاما، وقد دفن بجوار الشيخ ابن عربي بالصالحية بدمشق لوصية تركها. وبعد استقلال الجزائر نقل جثمانه إلى الجزائر عام 1965 .

1) الفكر الصوفي :

- ❑ اعتبر الأمير التصوف وسيلة للسمو الروحي والاقتراب من الله، كما دعا إلى التصالح بين الظاهر والباطن، مؤكداً أن الإيمان الحقيقي يتطلب التوازن بين العمل الداخلي (العبادة والتأمل) والعمل الخارجي (خدمة المجتمع).
- ❑ تأثر الأمير عبد القادر بفكر ابن عربي، خاصة مفهوم "وحدة الوجود"، الذي يرى أن كل شيء في الكون يعبر عن تجليات الله، وكان يركز على مفاهيم الحب الإلهي، التواضع، والتسامح الديني.
- ❑ إن التصوف عند الأمير ليس انعزلاً عن العالم، بل دافعاً للعمل والجهاد. اعتبر مقاومته للاستعمار الفرنسي جزءاً من واجبه الديني والجهادي.

2) الفكر الديني :

- ❑ وُلد الأمير عبد القادر في أسرة متدينة من الطريقة القادرية، وهي إحدى أشهر الطرق الصوفية في العالم الإسلامي، تلقى تعليماً دينياً واسعاً شمل علوم الفقه، الحديث، التفسير، والتصوف.
- ❑ تأثر بشكل خاص بأفكار الشيخ محيي الدين بن عربي، الذي كان مرجعاً رئيسياً لفكره الصوفي.
- ❑ كان الأمير يجمع بين التصوف الذي يركز على الباطن، والفقه الذي يهتم بالظاهر.
- ❑ أكد في ممارساته وتعاليمه على أهمية الالتزام بالشريعة الإسلامية كإطار للسلوك الفردي والجماعي.
- ❑ عُرف الأمير عبد القادر بتسامحه مع الأديان الأخرى، خاصة المسيحية واليهودية، وهو ما تجلّى في مواقفه الإنسانية، مثل حمايته للمسيحيين في دمشق خلال فتنة 1860.

(3) الفكر السياسي :

- مفهوم الدولة : قام الأمير ببناء دولته على أساس متين من الشريعة الإسلامية، حيث جعل من الدين إطارًا ناظمًا للحياة السياسية والاجتماعية، اهتم بتأسيس مؤسسات إدارية وعسكرية منظمة، مثل المجلس الاستشاري (مجلس الشورى)، والجيش النظامي، وإدارة الضرائب. اهتم بتأسيس دار للقضاء و ارساء أسس العدالة من خلال نظام إداري
- مكافحة الاستعمار الفرنسي: قاد الأمير مقاومة مسلحة منظمة ضد الاحتلال الفرنسي بداية من عام 1832، وتمكن من تحقيق نجاحات كبيرة في توحيد القبائل الجزائرية تحت راية واحدة.
- حمل الأمير رؤية استراتيجية في الحرب، حيث استخدم تكتيكات حربية متقدمة مثل حرب العصابات والكر والفر.
- أبدى قدرة على التفاوض السياسي، كما يظهر في معاهدتي تافنة (1837) ولاموريسي (1847)، وهو ما يعكس وعيه بأهمية التوازن بين القوة والمفاوضات.

(4) فلسفته :

- من أبرز مؤلفاته:
- كتاب **المواقف** هو كتاب يجمع أفكاره الروحية والفلسفية.
- رسائل ومقالات تعكس فهمه العميق للسياسة، الدين، والتاريخ.
- **الصوفية كأساس للمعرفة:** تأثر الأمير بالتصوف الإسلامي، خاصة بالتيار القادري، وهو ما يظهر جليًا في كتاباته مثل كتاب "المواقف"، ونظر إلى التصوف كطريق لمعرفة الله وتحقيق السمو الروحي، وأكد على أهمية الجمع بين العلم الشرعي والعلم الباطني.
- **تصوره عن الحرية:** هي عنده ذات قيمة مركزية في حياة الإنسان، سواء الحرية الفردية أو حرية الشعوب. وقد عبر عن ذلك في كتاباته حيث ربط الحرية بالإيمان الحقيقي وبالتحرر من الجهل والظلم.
- **الدين والأخلاق كأساس للحياة**
كان الأمير عبد القادر متصوفًا متأثرًا بالتصوف الإسلامي، خاصة بفكر محيي الدين بن عربي. رأى أن الدين ليس مجرد شعائر، بل أساس لبناء إنسانية متسامحة وأخلاقية. دعا إلى التعايش بين الأديان واحترام الآخر، معتبرًا أن جميع البشر متساوون أمام الله.

يعتبر الأمير عبد القادر من الشخصيات الإسلامية الرائدة التي قدمت نموذجًا للتفاعل الإيجابي مع الحضارة الغربية دون التخلي عن القيم الدينية، وما تكريمه من قبل المؤسسات الدولية كرمز عالمي للسلام إلا دليلًا على هذا.

إن تميز فكر الأمير عبد القادر يتجلى في المزج بين الهوية الوطنية والدينية من جهة والانفتاح على الإنسانية والعالمية من جهة أخرى. حيث امتد تأثيره إلى الفكر التحرري، التصوف، والتعايش السلمي، مما يجعله شخصية بارزة تستحق الدراسة والتأمل في عصرنا الحالي.